الفصل السادس
أسباب فتنة مقتل عثمان ﷺ

المبحث الأول

أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان ﷺ وما ترتّب عليها من أحداث، والحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها

أولاً: أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان ﷺ، وما ترتب عليها من أحداث في الجمل وصفين وغيرهما:

ورد عن كثير من السلف والعلماء الأمر بالتوقف عن الخوض في تفاصيل ما وقع بين الصحابة، وإيكال أمرهم إلى الله الحكم العدل، مع الترضّي عنهم، واعتقاد أنهم مجتهدون، مأجورون إن شاء الله، والحذر من الطعن فيهم والوقع في أعراضهم، لما يجرّ ذلك من الطعن في الشريعة، إذ هُمْ حملتها وحاملوها إلينا، ومن ذلك ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه سئل عن أهل صفين، فقال: تلك دماء طهَّر الله منها يدي، فلا أحب أن أخضّب لساني فيها[1]، وسئل أحدهم عن ذلك فقال متمثلاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: 134].

وهذا النهي معلّل، علّته الخوف مما ذكرناه من الطعن فيهم والوقوع في أعراضهم، وما يستوجب ذلك من غضب الله ومقته، فإذا انتفت هذه العلة، فالظاهر أنه لا حرج في ذلك، إذا كان الكلام والبحث في تفاصيل ما وقع بينهم لا يؤدي إلى الطعن فيهم مطلقاً، فلا بأس من دراسة ذلك والتعمق في أسبابه ودوافعه وتفصيلاته الدقيقة ونتائجه وتداعياته على مجتمع الصحابة، ثم على مَن بعدهم، وقد كتب من العلماء عن الفتنة، أمثال ابن كثير، والطبري وغيرهما، حول أحداث تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام، وفصّلوا،

(1) حلية الأولياء (9/ 114)؛ عون المعبود (12/ 274).

وفصّلوا في قضايا كثيرة تتعلق بتلك الفتنة، ومنهم مَن ذهب إلى حد تخطئة أحد الطرفين، أو كليهما، اعتماداً على روايات ونصوص كثيرة اختلط فيها الصحيح بغيره[1].

وهناك أسباب تدعو علماء أهل السنة وطلاب العلم منهم للغوص في أعماق فتنة الهرج التي وقعت في صدر الإسلام والبحث عن تفاصيلها ومن هذه الأسباب:

1 ـ إن المؤلفات المعاصرة التي تناولت أحداث الفتنة بين الصحابة والتابعين انقسمت إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ مصنفات تربّى أصحابها على موائد الفكر الغربي، الحاقد على التاريخ الإسلامي، أو الجاهل بالتاريخ الإسلامي، فلم يروا فيه شيئاً جميلاً، فراحوا يطعنون في الصحابة والتابعين بطريقة تخدم أهداف أعداء الإسلام، وخصومه، الذين قاموا لدراسة أحداث تلك الفتنة وتفاصيلها، وإعطائها تفسيرات تطعن في جموع الصحابة، وتضرب الإسلام في أصوله وتجعل من هذه الأحداث صراعاً سياسياً، على مناصب وكراس، تخلّى فيه الصحابة عن إيمانهم وتقواهم وصدقهم مع الله، وانقلبوا إلى طلاب دنيا، وعشاق زعامة، لا يهمهم أن تراق الدماء، وتزهق الأرواح وتسلب الأموال، وتستباح الحرمات إذا كان في ذلك ما يحقق لهم ما يريدون من الرياسة والزعامة.

وممن تولى كبر هذه الفرية، طه حسين في (الفتنة الكبرى)[2] الذي هو بحق فتنة كبرى على عقول الناشئة من أبناء المسلمين، فقد راح طه حسين يشنّع على الصحابة ويشكك في نياتهم، ويتهمهم باتهامات مغرضة خدمة لأهداف أعداء الإسلام والمسلمين[3]، وقد تأثر الكثير بمنهجه، ويبدو أن أمثال هؤلاء اعتمدوا على الروايات التاريخية التي أوردها المؤرخون كالطبري وابن عساكر وغيرهما، والتي اختلط فيها الغث بالسمين، والكذب بالصدق، أخذها دون مراعاة لمنهج هؤلاء في مصنفاتهم، وهذا خطأ كبير[4]، وقد تأثرت هذه الكتابات بالفكر

(1) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز دخان، ص(79).

(2) انظر: الفتنة الكبرى (عثمان علي وبنوه).

(3) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص(80).

(4) المصدر نفسه.

المنحرف والكتابات غير الصحيحة للتاريخ الإسلامي[1]، فقد تعمد الأعداء الإساءة في كتاباتهم للتاريخ الإسلامي، كما في روايات وأخبار الكلبي[2]، وأبي مخنف[3]، ونصر بن مزاحم المنقري[4]، والتي توجد حتى عند الطبري في تاريخه، لكن الطبري يذكرها مسندة لهؤلاء فيعرف أهل العلم حالها[5]، وكما في كتابات المسعودي في مروج الذهب، واليعقوبي في تاريخه. . .

وقد أشار الأستاذ محب الدين الخطيب في حاشية العواصم إلى أن التدوين التاريخي إنما بدأ بعد الدولة الأموية وكان للأصابع المعوجَّة والشعوبية المتلفعة برداء الضلال دور في طمس معالم الخير فيه، وتسويد صفحاته الناصعة[6].

ويظهر هذا الكيد لمن تدبر كتاب العواصم من القواصم لابن العربي مع الحاشية الممتازة التي وضعها العلامة محب الدين الخطيب، لقد سوّد بعض الكتّاب آلاف الصفحات بسبِّ أفضل قرن عرفته البشرية، وصرفوا أوقاتهم وجهودهم لتشويه تاريخ المسلمين[7]، وكانت هذه المادة (التاريخية) الكبيرة والتي تجدها في كتب التاريخ التي وضعها أولئك، أو شاركوا في بعض أخبارها، وتراها في كتب الحديث عندهم وهي كثيرة واسعة، وفي ما كتبه شيوخهم في القديم من ضلالات الحق، وفي الحديث من تقوُّل، هذه المادة السوداء المظلمة الكريهة الشائهة هي المرجع لما كتبه أعداء المسلمين من

(1) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص(80).

(2) محمد بن السائب الكلبي، قال ابن حبان: كان سبئياً من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا. توفي سنة 146هـ. ميزان الاعتدال (3/ 558)؛ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (7/ 270 ـ 271).

(3) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي من أهل الكوفة، قال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم توفي سنة 157هـ له تصانيف كثيرة منها: الردة، الجمل، صفين وغيرها.

(4) نصر بن مزاحم بن سيار المنقرى الكوفي، قال الذهبي: رافضي جلد تركوه، توفي سنة 212هـ، ومن كتبه: وقعة صفين، وهو مطبوع، والجمل ومقتل الحسين، ميزان الاعتدال (4/ 253).

(5) أصول مذهب الشيعة الإمامية، ناصر الغفاري (3/ 1457).

(6) المصدر نفسه (3/ 1458).

(7) أصول مذهب الشيعة الإمامية، ناصر الغفاري (3/ 1459).

المستشرقين وغيرهم، وجاء ذلك الجيل المهزوم روحياً، والذي يرى في الغرب قدوته، وأمثولته من المستغربين فتلقف ما كتبته الأقلام الاستشراقية وجعلها مصدره ومنهله، وتبنى أفكارهم ونشر شبهاتهم في ديار المسلمين، وكان لذلك أثره الخطير في أفكار المسلمين وثقافتهم، وكان تاعدول عن الحق هو الأصل في هذا الشر كله، وإن دراسة آراء المستشرقين وصلتها بالانحراف لهي موضوع هام يستحق الدراسة والتتبع، لقد بدأت استفادة العدو الكافر من شبهات الأعداء وأكاذيبهم ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ عهد الإمام ابن حزم (ت456هـ)[1].

ب ـ مصنفات لبعض علماء هذه الأمة من المعاصرين، وهي مفيدة إجمالاً، ولكن طريقة عرضهم للأحداث وتفسيرهم لمواقف بعض الصحابة والتابعين فيها كثير ـ أو بعض ـ من عدم الإنصاف مثل ما كتبه أبو الأعلى المودودي رحمه الله في كتابه (الخلافة والملك) وما دوّنه الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابيه (تاريخ الأمم الإسلامية) و(الإمام زيد بن علي) فالكتابان مشحونان بكثير من التحامل على مقام بعض الصحابة، والطعن على خلفاء بني أمية، وتنقصهم، وتجريدهم من أية خصلة حميدة، أو عمل صالح[2]، ويبدو أن أمثال هؤلاء العلماء لم يحققوا في الروايات التاريخية، فتورطوا في بث هذه الروايات الإماميّة الشيعيّة وبنوا عليها تحليلاتهم واستنتاجاتهم، غفر الله لنا ولهم.

ج ـ مصنّفات حاول أصحابها أن يسلكوا فيها منهج علماء الجرح والتعديل في نقد الروايات التاريخية، وعرضها على أصول منهج المحدثين من حيث السند والمتن من أجل تمييز صحيحها من سقيمها، وسليمها من عليلها.

وفي هذه المؤلفات محاولة جيدة، وجهد مشكور للوقوف في وجه هذا الزيف، وتفسير الأحداث التفسير الصحيح الذي لا يتعارض مع فضل الصحابة وإيمانهم وجهادهم[3]، ومن هذا المؤلفات الجيدة، ما كتبه الدكتور يوسف العش في «تاريخ الدولة

(1) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (3/ 1459).
(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص(81).
(3) المصدر نفسه.

الأموية»، وما كتبه محب الدين الخطيب، تعليقاً على كتاب «العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي»، وما كتبه صادق عرجون في كتابه «عثمان بن عفان»، وما سطّره الدكتور سليمان بن حمد العودة في كتابه «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»، وما كتبه محمد أمحزون في كتابه «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة»، وما كتبه الدكتور أكرم العمري في كتابه «الخلافة الراشدة»[1]، وما كتبه عثمان الخميس في كتابه «حقبة من التاريخ»، وما كتبه الدكتور محمد حسن شرّاب في كتابه «المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي»، وما قام به محب الدين من تحقيقات نافعة وتعليقات صائبة على كتاب العواصم من القواصم، والمنتقى، وغيرها من الكتب والبحوث والرسائل التي سارت على نفس المنهج، فقد ظهر من هذا البيان شدة الحاجة إلى وجود مؤلفات ومصنفات تردّ على هذه المزاعم والأخطاء.

ولا يتم الرد على هؤلاء المزيفين للتاريخ الإسلامي، ومقام الصحابة إلا بمحاولة دراسة تفاصيل تلك الأحداث، وغربلة الأخبار والروايات الواردة بميزان الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف[2]، وقد جاء عن ابن تيمية قوله: لكن إذا ظهر مبتدع، يقدح فيهم بالباطل، فلابد من الذبّ عنهم، وذكر ما يبطل حجّته بعلم وعدل[3]. وقد ذهب الإمام الذهبي رحمه الله في هذا مذهباً آخر، فهو يدعو إلى إحراق هذه الكتب التي فيها هذا الكذب والتشويه لمقام الصحابة، قال رحمه الله: كما تقرر الكفّ عن كثير مما وقع بين الصحابة وقتالهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغي طيّه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم[4].

وقد أفادنا الذهبي في كلامه فائدة كبيرة، وهو تصريحه بكون أكثر ما ينقل من ذلك في الكتب والدواوين كذباً وزوراً وافتراء على مقام الصحابة ﷺ، إلا أن اقتراح الذهبي

(1) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص(82).
(2) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(83).
(3) منهاج السنّة (3/ 192).
(4) سير أعلام النبلاء (10/ 92).

بحرق تلك المؤلفات لم يعد ممكناً فقد انتشرت هذه الكتب، وتولت طباعتها كثير من دور النشر، وكثير من ذوي النيات السيئة، فلم يبق إلا وضعها موضع الدراسة وبيان ما فيها من عوار وخطأ وكذب حفظاً لأجيال المسلمين من انحراف السلوك والعقيدة[1].

2 ـ تظهر أهمية دراسة فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما ترتب عليها من أحداث لمعرفة أسباب الفتنة الحقيقية، سواء كانت هذه الأسباب داخلية أو خارجية، ومعرفة نصيب كل سبب من الأسباب فيما حدث، وهل هناك أسباب يمكن إدراجها في هذا السبيل؟

إن الذي يقرأ طرفاً مما كتب عن هذه الفتنة يحسّ أن مؤامرة كبرى، جرى التخطيط لها، وتعاون المجوس واليهود والمنافقون على تنفيذها، فقضية تآمر الأعداء ترافق الأمة الإسلامية في كل مراحل تاريخها الطويل[2].

إلا أن هذه المؤامرة ما كانت لتنجح لولا وجود عوامل ضعف داخلية ساهمت في التمكين لنجاح هذه المؤامرة، أصبحت دراسة عهد الصحابة ـ والحالة هذه ـ واجباً من الواجبات في سبيل معرفة أسباب ضعف الأمة الإسلامية، وتحديد مكامن الداء التي أوتيت منها، والاستفادة من ذلك في إصلاح حاضر هذه الأمة وتجنيبها هذه المزالق في مستقبل حياتها؟ أم كتب عليها أن تظلّ ترزأ تحت ثقل أدوائها من الداخل وكيد أعدائها من الخارج[3].

إن ما وقع من أحداث جسام في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما ترتب عليها من أحداث تحتاج لدراسة عميقة ومتأنية؛ لكي نستخرج من تلك الحقبة التاريخية دروساً وعبراً نستضيء بها في حاضرنا، ولكي نسترشد بها في سعينا الجّاد لإعادة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة حتى تسعد البشرية بدين الله وشرعه، وتخرج من شقاوتها وتعاستها وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله تعالى.

ثانياً: الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها:

لقد أخبر النبي ﷺ في كثير من أحاديثه بأن هذه الأمة ستختلف وستتقاتل، وتعددت

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(84).

(2) المصدر نفسه، ص(83).

(3) المصدر نفسه، ص(85).

الأحاديث التي تشير إلى ذلك بإجمال أو بتفصيل، وتنوعت أساليب الإخبار عن ذلك من ذكر لأسباب الفتن، أو لنتائجها، أو لبعض أحداثها، ووقائعها، أو لمن يثيرونها، وغير ذلك، وكان كثير من هذا البيان والتوضيح منه ﷺ جواباً لأسئلة الصحابة الكرام الذين كانوا يطرحونها عليه، وهم يشاهدون ويتذوقون النعمة العظيمة التي أفاءها الله عليهم، وهي نعمة الأخوّة ووحدة الصف واجتماع الكلمة، فراحوا يسألون فيما إذا كانت هذه النعمة ستدوم أم تزول، ولما كان رسول الله ﷺ يعلم بالوحي: أنها لن تدوم كما هي، أحبَّ أن يربّيهم على الاستعداد لهذه المحن والفتن حتى يحسنوا التصرف يوم يقدّر الله لهذه الفتنة أن تقع، فيسعوا إلى علاجها في وقتها، ومن خلال النظر في جملة الأحاديث الواردة في ذكر الفتن نلمح الحكم التالية[1]:

1 ـ إن النبي ﷺ وهو يذكر هذه الفتن والوقائع يريد أن يربي الأمة على الاستعداد لها، حتى تحسن التصرف يوم تقع هذه الفتن، فَتَسْعَى إلى علاجها في وقتها.

2 ـ إن في هذه الأحاديث إشارات إلى من يثيرونها، وأنها أحياناً تكون من قوم ظاهري الإيمان والتشدد، ولكن عقولهم منحرفة، وقلوبهم ملتوية، وهم في جملة حالهم غير مدركين ولا فاقهين[2].

3 ـ إن هذه الفتنة تكشف المنافقين، وتصقل قلوب المؤمنين، فيزدادون إيماناً، ويتحفزون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو نوع من الابتلاء تصقل به النفوس وتتعود المجاهدة، وتتعرف الخير فتأمر به، والشرّ فتنهى عنه[3].

4 ـ إن الإخبار عن هذه الفتن يحمل في مضمونه تحذيراً شديداً من الوقوع فيها، أو ملابسة شيء منها، ذلك أن المؤمنين من هذه الأمة ـ من الصحابة وغيرهم ـ حين يسمعون خبر النبي ﷺ بأن منهم مَن سيحدث منه القتل، ومنهم مَن سيتعلق بالدنيا، ومنهم مَن سيترك الجهاد، ومنهم، ومنهم... تتحرك في نفوسهم مشاعر المواجهة لهذه الفتن، ويقول كل واحد منهم، لعلي أنجو! ويصبح الموقف منها الخوف على الدوام أن يقع في تلك المهالك على غفلة، والخوف ـ في هذا

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(68).
(2) الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص(137).
(3) المصدر نفسه، ص(136، 137).

الباب ـ من أعظم سبل النجاة[1].

قال ابن تيمية رحمه الله، بعد أن أورد عدة أحاديث مرفوعة في وقوع هذا الخلاف والاختلاف في هذه الأمة: وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ، من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لابد من وقوعها في الأمة، وكان يحذّر أمته، لينجو من شاء الله له السلامة[2].

5 ـ إن الإخبار عن هذه الفتن أدقّ في تحديد سبل النجاة منها، فإن الإنسان مهما بالغتَ في تحذيره من خطر يهدده ـ دون أن تحددّ له هذا الخطر، أو تبين له كيفية الوقوع فيه ـ قد لا يتصور الطريقة التي سيحدث بها، ولا يستبين طبيعة المشكلة التي سيواجهها، وقد يقع في المحذور دون أن يعرف أنه المقصود بالتحذير[3].

6 ـ إن الإخبار عن تلك الفتن اقترن في بعض الأحاديث بذكر أسبابها، أو بيان نتائجها، أو موقف المسلم منها، وهذا ينفع المسلم ـ أو الأمة كلها ـ في نبذ أسباب الفتن، أو الحكم على وقائع معينة من خلال النظر في نتائجها، أو اتخاذ الموقف السليم منها ابتداء.

7 ـ ثم إن فيها دليلاً واضحاً على صدق رسالة محمد ﷺ ونبوته، يزداد به إيمان الصحابة الذين سمعوا الحديث، ثم رأوا تأويله في مواقفهم بعد مدّة، ويزداد به إيمان المؤمن ـ كل مؤمن ـ في كل عصر ومصر، وهو يعيش وقائع الفتن والاختلافات التي أخبر النبي ﷺ بوقوعها[4].

وقد جمع الدكتور عبد العزيز صغير دخان أحاديث الفتنة وقام بدراستها وبيان صحيحها من ضعيفها في كتابه «أحداث وأحاديث فتنة الهرج»، ثم استخرج من الأحاديث الصحيحة معاني دلت عليها تلك الأحاديث منها:

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(69).

(2) المصدر نفسه، ص(70)؛ اقتضاء الصراط (1/ 127).

(3) المصدر نفسه، ص(70).

(4) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(70).

1 ـ أن الفتنة سنة الله عز وجل في الأمم، وفي هذه الأمة إلى قيام الساعة وهي فتن كقطع الليل المظلم، عمياء، صماء، بكماء مَن سعى فيها هلك في الدنيا والآخرة، ومَن كف يده أفلح، لا يكاد يبصر فيها أحد موقفه إلا مَن أحياه الله بالعلم وزوده بالتقوى، وهداه إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه[1].

2 ـ وفي هذه الأحاديث أن فتنة القتال بين المسلمين أمر واقع لا محالة، ولا سبيل لإنكاره واستغرابه بدءاً بما وقع بين الصحابة والتابعين، ومروراً بالعصور الإسلامية إلى اليوم، ولكن الواجب هو معرفة أسباب هذا القتال لتلافيها، أو السعي في إطفاء نار الفتنة حينما تشبُّ في ديار المسلمين، وألا ينبغي أن يقف المسلم منها موقف المتفرج.

3 ـ ومن رحمة الله بهذه الأمة أن يكفِّر عنها ذنوبها في الدنيا، وليس القتل والفتن التي تنزل ساحتها، والزلازل التي تصيبها إلا كفارة لهذه الذنوب.

4 ـ وفي بعض هذه الأحاديث إشارة واضحة وصريحة إلى أن منبت معظم هذه الفتن من قبل المشرق، وكذلك كان الواقع، فإن الفتنة الأولى بدأ تحريكها في الكوفة والبصرة، وفتنة الجمل كانت هناك.

5 ـ وفي الفتنة يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا يسير، وتتحكم فيهم الشهوات والشبهات، ويصير أهل الإسلام الصحيح غرباء في سلوكهم وتصرفاتهم، ويصبح المتمسك بدينه أشبه ما يكون بالذي يقبض على الجمر، أو على الشوك، صابراً محتسباً ما يصيبه من الألم والأذى في سبيل دينه وما يعتقد أنه حق.

6 ـ وفي الفتنة، يحفظ الله طائفة من الناس، فلا تلتبس بالفتنة، ولا تتلطخ أيديهم من دماء المسلمين، يسعون في إصلاح ذات البين، والدعوة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة من رحمة وأخوَّة، وسيكون موقفهم غريباً بدون شك وسط الجموع الهائجة، والأهواء المستحكمة[2].

7 ـ وفي الفتنة يلعب اللسان دوراً أخطر من السيف، بل إن اللسان يكون غالباً منشأ

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(345).

(2) المصدر نفسه، ص(346 ـ 348).

الفتن والبلايا، فرب كلمة شر مسمومة انطلقت، فأشعلت النار في القلوب، وهيجت ما كان مستكناً في النفوس، وشحذت العواطف، وكان سبباً في فتن ضارية[1].

8 ـ وفي الفتنة ينقص العلم، إما بموت العلماء أو بسكوتهم واعتزالهم إيثاراً للسلامة، أو لانصراف الناس عنهم لسبب من الأسباب، ويسود عندها الجهل، ويتخذ الناس رؤساء جهّالاً، فيفتوا بغير علم، فيُضلوا ويَضِلوا، ويسود الرويبضة وهو التافه من الناس، ويستعلي السفهاء منهم[2].

9 ـ وفي هذه الأحاديث أن الله ﷻ ضمن لرسوله ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالسنين والمجاعات، وألا يسلط عليها عدواً فيتمكن منها دائماً، مهما كانت قوة هذا العدو وإمكانياته وجبروته، ولكن الأمر الذي لم يضمنه الله لرسوله ﷺ هو ألا تختلف هذه الأمة، وسيكون هذا هو الباب الذي يدخل منه العدو الخارجي، إذ أن الأمة إذا اختلفت فيما بينها وقتل بعضها بعضاً، ضعفت عوامل القوة فيها، وتمكن منها عدوها، فعبث بخيراتها ومقدراتها، ولن يرفع عنها حتى تعود إلى تحقيق القوة في نفسها بالوحدة، وجمع الكلمة، والاحتكام إلى شرع الله[3].

10 ـ وفي الأحاديث أن وقوع الفتنة واستمرارها مظنة ظهور فرق المنحرفين عن هدي الإسلام، وتمكن أهل الباطل وظهورهم.

11 ـ وفي الفتنة تتغير أخلاق الناس، وتتبدل، ويزهد الناس في العمل الصالح، ومشاريع الخير، ويلقى بين الناس العداوة والبغضاء والحقد، ويختلط الأمر على الناس.

12 ـ وفي الأحاديث أن هذه الفتن يسبقها أمن واستقرار وصلاح أحوال الناس المادية والأمنية، حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخالف إلا ضلّال الطريق، ويظهر هذا في عهد عثمان رضي الله عنه، فقد كان عهد أمن واستقرار وتدفق الأموال

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(348).
(2) المصدر نفسه، ص(348).
(3) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(348).

والخيرات، ثم حدثت فتنة الهرج، فُقوِّض ذلك كله، حتى تبدل الحال من الأمن إلى الخوف.

13 ـ وفي الفتنة يقتل خيار الناس وذوو العقول والرأي فيهم، ويبقى رجرجة من الناس لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً[1]، هذه بعض المعاني من أحاديث الفتن.

المبحث الثاني

أسباب فتنة مقتل عثمان ﷺ

قال الإمام الزهري: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أول ستٍّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم، أما عثمان فقد لانَ لهم وَوَصَلهم، ثم حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمى المؤرخون المسلمون الأحداث في النصف الثاني من ولاية عثمان 30 ـ 35هـ (الفتنة) التي أدَّت إلى استشهاد عثمان[2] رضي الله عنه. كان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان، متفقين، لا تنازع بينهم، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم، فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان[3].

وقد كان المجتمع الإسلامي في خلافة الصدِّيق والفاروق والنصف الأول من خلافة عثمان يتصف بالسمات الآتية:

1 ـ أنه ـ في عمومه ـ مجتمع مسلم بكامل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبقٌ لتعاليم الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ، فالدين بالنسبة إليه هو الحياة، وليس شيئاً هامشياً يفيء الناس إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة الناس، وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبّدية يحرصون على أدائها على وجهها

(1) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(349، 350).

(2) طبقات ابن سعد (1/ 39 ـ 47)؛ البداية والنهاية (7/ 144 ـ 149)؛ الخلفاء الراشدون للخالدي، ص(112).

(3) مجموع الفتاوى (13/ 20).

الصحيح، وإنما من أخلاقياتهم، وتصوراتهم واهتماماتهم، وقيمهم، وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار، والبيع والشراء والضرب في مناكب الأرض، والسعي وراء الأرزاق، وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق في الحياة الدنيا، ولا في أي مجتمع من البشر، وقد كان في مجتمع الرسول ﷺ ـ كما ورد في كتاب الله ـ منافقون يتظاهرون بالإسلام وهم في دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعاف الإيمان، والمعوّقون، والمتثاقلون، والمبطّؤون، والخائنون، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزن في ذلك المجتمع، ولا قدرة على تحويل مجراه، لأن التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقي الإيمان المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، الملتزمين بتعاليم هذا الدين[1].

2 ـ أنه المجتمع الذي تحقق فيه أعلى مستوى من المعنى الحقيقي (للأمة)، فليست الأمة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة المصالح، فتلك هي الروابط التي تربط البشر في الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهي أمة جاهلية، أما الأمة بمعناها الرباني؛ فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقق في التاريخ وحده كما تحققت في الأمة الإسلامية، فالأمة الإسلامية هي أمة لا تقوم على عصبية الأرض ولا الجنس ولا اللون ولا المصالح الأرضية، إنما هو رباط العقيدة، يربط بين العربي والحبشي والرومي والفارسي، يربط بين أهل البلاد المفتوحة والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة في الدين.

ولئن كان معنى الأمة قد حقّقته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معاني الإسلام كلها، بما فيها معنى الأمة، على نحو غير مسبوق[2].

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب، ص(100).

(2) المصدر نفسه، ص(101).

3 ـ أنه مجتمع أخلاقي، يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته، وهي قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها، وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خال من التبرج، ومن فوضى الاختلاط وخال من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة، وخال من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهي تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس في المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب، لا غمز ولا لمز، ولا نميمة ولا قذف للأعراض[1].

4 ـ أنه مجتمع جاد، مشغول بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وليس الجد بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة في الناس وتحث على النشاط والعمل والحركة، كما أن اهتماماته أعلى وأبعد من واقع الحس القريب، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة، التي تتكع في البيوت وفي الطرقات، تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ[2].

5 ـ أنه مجتمع مجنَّد للعمل، في كل اتجاه تلمس فيه روح الجندية واضحة لا في القتال في سبيل الله فحسب، وإن كان القتال في سبيل الله قد شغل حيزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع، ولكن في جميع الاتجاهات، فالكل متأهب للعمل في اللحظة التي يطلب منه فيها العمل، ومن ثم لم يكن في حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كل اتجاه[3].

6 ـ أنه مجتمع متعبد، تلمس فيه روح العبادة واضحة في تصرفاته ليس فقط في أداء الفرائض، والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضات الله، ولكن في أداء الأعمال جميعاً، فالعمل في حسّه عبادة، يؤدّيه بروح العبادة، الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص(102).
(2) المصدر نفسه، ص(102).
(3) المصدر نفسه.

والمعلم الذي يعلّم القرآن، ويفقّه الناس في الدين يعلّم بروح العبادة، والتاجر الذي يراعي الله في بيعه وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة، والزوج يرعى بيته بروح العبادة، والزوجة ترعى بيتها بروح العبادة، تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

هذه من أهم سمات عصر الصدِّيق وعهد الخلفاء الراشدين، إلا أن تلك السمات كانت أقوى كلما اقتربنا من عهد النبوة وتضعف كلما ابتعدنا عن عصر النبوة، وهذه السمات جعلته مجتمعاً مسلماً في أعلى آفاقه، وهي التي جعلت هذه الفترة المثالية في تاريخ الإسلام، كما أنها هي التي ساعدت في نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التي انتشرت بها، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح في التاريخ كله، بحيث شملت في أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً، وهي ظاهرة في ذاتها تستحق التسجيل والإبراز، وكذلك دخول الناس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهر ولا ضغط، وقد كانت تلك السمات التي اشتمل عليها المجتمع المسلم هي الرصيد الحقيقي لهذه الظاهرة، فقد أحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقاً على هذه الصورة العجيبة الوضاءة، فأحبوا أن يكونوا من بين معتنقيه[2].

إن دراسة هذه الفترة من التاريخ ينبغي أن تترك انطباعاً لا يمحى في نفس الدارس. انطباعاً بأن الإسلام دين واقعي قابل للتطبيق في عالم الواقع بكل مثالياته، فهي ليست مثاليات معلقة في الفضاء لمجرد التأمل، أو التمني، ولكنها مثاليات واقعية، في متناول التطبيق إذا حاولها الناس بالجدية الواجبة وأعطوها حقها من الجهد، ثم انطباعاً بأن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى، لأن البشر هم البشر، وقد استطاع البشر دائماً أن يحاولوا الصعود مرة أخرى وسيصعدون حين يعزمون، وسينالون على ذلك النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55].

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص(102).
(2) المصدر نفسه.

ومن الأمور التي تساعد المسلمين على العودة إلى الخلافة الراشدة معرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى زوالها، لكي نعمل على اجتنابها والأخذ بالأسباب التي جعلها الله سبباً في إكرام الأمة بها، ولذلك نريد أن نفصل في أسباب فتنة مقتل عثمان لأهميتها، **وإليك أهم هذه الأسباب**[1]:

أولاً: الرخاء وأثره في المجتمع:

كان رسول الله ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش وفقر الحال، فكان يصبّرهم، ثم يخبرهم أن هذا الحال الذي هم عليه لن يدوم طويلاً، حتى تفتح عليهم خزائن الدنيا وخيراتها، وحذرهم من الاشتغال بذلك عن العمل الصالح والجهاد في سبيل الله، وما يمكن أن يجره ذلك عليهم من التقاتل على الدنيا ومتاعها الزائل[2]، وقد فقه عمر بن الخطاب هذا التحذير فكان من سياسته حماية المسلمين من غوائل فتنة المال وزخارف الدنيا، فاجتهد في منع المسلمين من التوسع في بلاد العجم، ولولا ظهور مصلحة أخرى راجحة في توسعهم لبقي المنع قائماً، إلا أن هذا التراجع من عمر لم يشمل كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين كانوا بالمدينة إذ بقي المنع في حقهم[3].

ولا شكّ أن الذي فعله عمر كان يدل على إحساسه وخوفه من انتشار المسلمين في أرض تزخر بألوان الخيرات والأرزاق، فتستولي الدنيا على قلوبهم، وتفسد عليهم آخرتهم[4]، فلما جاء عهد عثمان وتوسعت الفتوحات شرقاً وغرباً، وبدأت الأموال تتقاطر على بيت المال من الغنائم والأسلاب، وامتلأت أيدي الناس بالخيرات والأرزاق[5]، وغني عن الإشارة أن النعم والخيرات وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرخاء وما يترتب عليه من انشغال الناس بالدنيا والافتتان بها، كما أنها مادة للتنافس والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص(103، 104).
(2) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(559).
(3) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(565).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه، ص(566).

الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات وأبناء الأمم المترفة الدخلاء في الإسلام الذين جروا شوطاً بعيداً في زخارف الدنيا وبهجتها، واتخذوها غاية يتنافسون فيها، وقد أدرك عثمان هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدّل والتغيّر في كتابه الموّجه إلى الرعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[1].

أما تكامل النعم فيتحدث الحسن البصري ـ وهو شاهد عيان ـ عن حالة المجتمع، ووفور الخيرات، وإدرار الأموال، وما آل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشكر، فيقول: أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً يقال لهم: يا معشر المسلمين! اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل، فالأعطيات جارية، والأرزاق دارّة، والعدو متقى، وذات البين حسن، والخير كثير... والأخرى كان السيف مغمداً على أهل الإسلام فسلّوه على أنفسهم، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا.

وأيم الله إني لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة[2].

وأما بلوغ أولاد المسلمين من السبايا، فيتمثل في ما آل إليه أمر هؤلاء من الدعة والترف، وكان أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات[3]، فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان[4]، فقصّها وكسر الجلاهقات[5]، وحدث بين الناس النّشو بتناولهم النبيذ، فأرسل عثمان رجلاً يطوف عليهم بالعصا ليمنعهم من ذلك، وعندما اشتد ذلك شكاهم عثمان رضي الله عنه إلى الناس، فأجمعوا على أن يجلدوا في النبيذ، فأخذ نفر منهم فجلدوا، ثم جعل عثمان لا يأخذ أحداً على شرّ أو شهر سلاحاً إلا نفاه من المدينة، فضج آباؤهم من

(1) تاريخ الطبري (5/ 245).
(2) البداية والنهاية (7/ 224).
(3) قوس البندق الذي يرمى به.
(4) أي: في السنة الثامنة من خلافته.
(5) تاريخ الطبري (5/ 415).

ذلك[1]. وقام عثمان في المدينة فقال: (إن الناس تبلغني عنهم هناتٌ وهناتٌ، وإني لا أكون أول مَن فتح بابها ولا أدار راحتها (أي الفتنة)، ألا وإني زامٌّ نفسي بزمام، وملجمها بلجام، فأقودها بزمامها، وأكبعها[2] بلجامها، ومنّا ولكم طرف الحبل، فمن اتبعني حملته على الأمر الذي يعرف، ومَن لم يتبعني فمن خلفٍ منه وعزاء منه، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشهيداً، سائق يسوقها على أمر الله، وشاهد يشهد عليها بعملها، فمن كان يريد الله بشيء فليبشر، ومن كان يريد الدنيا فقد خسر[3].

وهكذا لما قام عثمان الرجل التقي والخليفة الراشد بواجبه، وكانت إجراءاته تعزيرته تجاه أبناء الأغنياء الذين بدأوا نوعاً من حياة الترف وفساد الأخلاق، انضم أولئك المنحرفون إلى صف الناقمين من الرّعاع.

وبالنسبة لقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فيظهر في شكل واضح في تكوين طبقة في المجتمع المسلم تتعلّم القرآن لا رغبة في الثواب، وإنما رغبة في الجُعْل الذي جعله الخليفة تشجيعاً وتأليفاً[4]، ويجب أن نلاحظ أن هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً على أطراف الدولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، مما دفع عثمان رضي الله عنه إلى تذكير المسلمين في خُطَبِهِ بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحطامها، فكان مما قاله في إحدى خطبه:

إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنّكم الفانية، ولا تشغلنّكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً[5]، ثم قرأ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(1) المصدر نفسه (5/ 416).
(2) أي: من الكبح، المنع.
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 361).
(4) الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ص(392).
(5) أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، ص(567).

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرَان: 103، 104] .

وفي مثل هذه الظروف، والخيرات وافرة، فاضت الدنيا على المسلمين وتفرغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم واطمأنوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم[1].

ومن هنا يعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضي الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[2]: إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصّر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين فإني خاشٍ أن يبتلوا[3].

وفي آخر خطبة لعثمان رضي الله عنه وهو يعظ المسلمين بعد أن فتحت الدنيا عليهم قال:

ألا لا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنّكم عن الباقية... واحذروا أحداث الدهر المغير، والزموا جماعتكم، ولا تتفرقوا شيعاً وأحزاباً[4].

ثانياً: طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضي الله عنه:

حدثت تغيُّرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءاً من النصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها في التمرد الذي أدى إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه[5].

لما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح حصل تغير في تركيبة المجتمع والاختلالات في نسيجه، لأن هذه الدولة بتوسعها المكاني والبشري ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة وخروقات غير منتظمة، ورقع غير منسجمة مما صيرت المجتمع غير متجانس في نسيجه التركيبي وبالذات في الأمصار الكبرى المؤثّرة: البصرة، والكوفة، والشام،

(1) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 362).

(2) المقصود بالباب منطقة في جهات أذربيجان تسمى الدر البند. معجم البلدان (1/ 303).

(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 361).

(4) المصدر نفسه (1/ 362).

(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص(166).

ومصر، والمدينة، ومكّة، فقد كانت الأمصار الكبيرة ـ بمواقعها وأهميتها ـ تدفع بجيوش الفتوح، وتستقبلها وهي عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس أو من النصارى العرب أو غيرهم أو من اليهود[1]، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم ممن شاركوا في حركة الفتح الإسلامي ثم استقروا في هذه الأمصار، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربية من جنوبها وشمالها وشرقها والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصحابة، وبمعنى أدق ليسوا ممن تلقوا التربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأول من الصحابة؛ إما لانشغالهم بالفتوح أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيّرات في نسيج المجتمع البشري المكون من جيل السابقين وسكان البلاد المفتوحة، والأعراب، ومَن سبقت لهم ردة، واليهود والنصارى، وفي تكوين نسيج المجتمع الثقافي، وفي بسطة عيش المجتمع وفي ظهور لون جديد من الانحرافات، وفي قبول الشائعات[2].

1 ـ المتغيرات في نسيج المجتمع البشري:

أ ـ لقد تكوَّن هذا النسيج من قطاعات عدة، قطاع الأسبقين ممن بقي من الصحابة، ومن الذين نالوا قسطاً من رعاية الصحابة، ولكن هذا القطاع وذاك ظلّ يتناقص؛ إمّا عن طريق الموت والقتل في ميادين الفتوح، وإما عن طريق تفرقهم في الأمصار مما جعلهم أقل حضوراً، وكانوا موزعين في البلدان المفتوحة والأمصار الكبيرة المستحدثة كالبصرة والكوفة، والشام، ومصر، وبعضهم في الجزيرة العربية يخرجون منها ثم يعودون إليها مرة أخرى[3].

ب ـ سكان المناطق المفتوحة، وكانوا يشكلون الأكثرية بالنسبة للقادمين إليهم مع حركة الفتوح، فقد ظل القادمون قلة، وإن كان لهم حضور فعلي في إدارة البلد أو التأثير السلوكي والأخلاقي والفكري واللغوي، إلا أنهم رغم ذلك يُعتبرون قلّة، وظل هذا القطاع ـ قطاع سكان المناطق المفتوحة ـ مقتصراً في استقراره ـ غالباً ـ على مناطقهم،

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(379).
(2) المصدر نفسه، ص(380).
(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(380).

ومع هذا فقد تنقل بعضهم في المناطق الأخرى من بلدان الدولة الإسلامية، بل استقر بعضهم في الأمصار الكبيرة وفي عاصمة الدولة أيضاً، إما على شكل ما عرف بالسبي، أي يستقرون تابعين لمواليهم، وإما على شكل تنقل تجاري ومعارفي وإداري حيث لا يوجد قانون يمنعهم من ذلك، إن لم يكونوا يلقون التشجيع والدعم[1]، وقد كان الأعاجم الذين جاؤوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة، ذلكم لأن أغلب الأعاجم من الأمم الموتورة، والشعوب المقهورة، فتكثر مسارعتهم للفتن لأسباب كثيرة منها:

- جهلهم، وحداثة عهد أكثرهم بالكفر، والمُلك والعز الذي كانوا عليه، ثم سُلبوه.
- قلّة فقههم في الدين، بسبب العجمة وغيرها.
- العصبية، وكراهية العرب.
- أن طوائف منهم دخلت الإسلام ظاهراً وخوفاً من السيف أو الجزية، وأضمروا للإسلام والمسلمين الشر والكيد، فيسارعون إلى كل فتنة.
- طمع أهل الأهواء فيهم للأسباب المذكورة وتحريضهم لهم[2].

ج ـ **أولئك الأعراب عُرفوا بأنهم من سكان البادية** وهم مثل بقية الناس، منهم المسلم التقي، ومنهم الكافر والمنافق إلا أنهم كما قال الله عنهم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: 97]. وذلك لأنهم أقسى قلوباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، ولصفاتهم هذه فهم جديرون وأخلق بهم أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام والجهاد[3]، فهم من أسرع الناس في الفتن، ولمسارعتهم فيها أسباب، منها:

- قلة فقههم في الدين.
- سرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلمه من القرآن، فيظن أنه صار عالماً بقليل من العلم.

---

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(380).

(2) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل، ص(161).

(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(380). نقلاً عن الشوكاني فتح القدير (2/ 395 ـ 397).

- جفاؤهم للعلماء وترك التلقّي عنهم، والاقتداء بهم.
- تمكّن العصبية القبلية من نفوسهم.
- تغرير أهل المطامع بهم، واستغلال سذاجتهم وجهلهم.
- حدة طباعهم ونفورهم من المدنية والخلطة، وإساءة الظن بالآخرين ممن لا يعرفونهم، وهذا من طباع الأعراب في كل زمان ومكان.
- تشددهم في الدين، وتنطعهم بلا علم، لذلك صار غالب الخوارج من هذا الصنف[1].

وخرج من هؤلاء الأعراب رجال عرفوا (بالقرَّاء) وقد اختلف مفهوم (القرَّاء) هذا عن منطوقه، فالمنطوق يقصد به جماعة ممن تخصصوا بقراءة القرآن، إلا أن المفهوم ومن خلال الواقع أنتج دلالات أخرى، فمنهم مَن كان ـ على طريقة الخوارج ـ يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصة، ومنهم مَن كان زاهداً لا يفقه حقيقة ما يقرأ ولم يستطع التأقلم مع واقع المجتمع[2]، وهؤلاء القراء الجهلة يسارعون للفتن وذلك لأسباب منها:

- الشدة في نزعة التدين عندهم مع قلة الفقه في الدين، مما يورث غيرة على الدين بغير علم ولا بصيرة، فتجرفهم الأهواء والعواطف باسم الغيرة على الدين، دون نظر في العواقب، ولا فقه لقواعد الشرع، كدرء المفاسد، وجلب المصالح.
- الاغترار بما يحصّله الواحد منهم من الآيات والأحاديث دون فقه ولا بصيرة، فيتوهم أنه صار من أهل العلم، الذين يحلّون ويعقدون في مصالح المسلمين.
- تعاليهم على العلماء والأئمة، وظنهم أنهم وصلوا درجة الاستغناء عنهم وعن فقههم وعلمهم، تحت شعار: هم رجال، ونحن رجال.
- اتخاذهم رؤساء جهالاً من بينهم دون العلماء والأئمة.
- لأن أهل الأهواء ورؤوس البدع والفتن ـ وغالبهم من الدهاة ـ يفزعون إلى

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص(161).

(2) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(381).

القراء فيغوونهم، ويستدرجونهم، ويستغلون نزعة التدين فيهم، ويستثيرون غيرتهم بلا بصيرة.

- جهلهم بقواعد الاستدلال وأحكام الفتن[1].

د ـ وفصيلٌ، أو قطاع آخر في نسيج المجتمع الإسلامي وهو ممن سبقت لهم ردة، وكانت حياتهم في الإسلام قصيرة وانتماؤهم إليه ضرورة، ولا ننفي أن منهم مَن زكى وصلح وكان من الفضلاء، إلا أن منهم مَن لم يتذوق حلاوة الإسلام فظل ـ رغم انتسابه للإسلام ـ يعيش بعقليته السابقة ونفسيته التي عاشها قبل الإسلام الفعلية القبلية، تناوشه العصبيات، وكأن الإسلام لم يدخل فيهم أو أنهم ظنوا عدم التناقض بين ما يعرفونه من إسلام وما يتعاملون به في الواقع من دوافع قبلية[2].

لقد شكلت طوائف من المرتدين عنصراً ساهم في تهيئة أجواء الفتنة، والمرتدون كانوا على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكن الشيء الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضي الله عنه عن الخليفتين قبله تجاههم، فأبو بكر رضي الله عنه يكتب إلى عماله: ألا يستعينوا بمرتد في جهاد العدو، ويؤكد على خالد بن الوليد، وعياض بن غنم ألا يغزو معهم أحد قد ارتد حتى يرى رأيه فيهم، فلم تشهد أيامه[3] مرتداً، ويقول الشعبي: كان أبو بكر رضي الله عنه لا يستعين في حروبه بأحد من أهل الردة حتى مات[4]، ولذلك كان بعض مَن ارتد، وحسن إسلامهم بعد ذلك، يستحيون من مواجهة أبي بكر، فطليحة بن خويلد ـ مثلاً ـ يذهب إلى مكة معتمراً، وما استطاع مقابلة أبي بكر حتى مات[5]، وفي خلافة عمر رضي الله عنه تخفُّ هذه السياسة، تجاه المرتدين، فيندب أهل الردة ليرمي بهم الشام والعراق[6].

وقد كان في مسيرة جيش سعد بن أبي وقاص في القادسية قيس بن مكشوح المرادي، وعمرو بن معد يكرب كان يحمّس الناس ويحرك مشاعرهم، وهذا كله كان

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص(163).
(2) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(381).
(3) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، سليمان العوده، ص(155).
(4) البداية والنهاية (6/ 347).
(5) التاريخ الإسلامي (9/ 59).
(6) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص(156).

بعد أن أذن عمر لأهل الردة في الغزو[1]، ولكن هذا التجاوز عن سياسة أبي بكر عند عمر يصحبه نوع من الحذر والحيطة، ولا ينفك عن الضوابط والشروط المقيدة، فأهل الردة لا يولون على مائة، ولهذا اضطر سعد أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلاً فقط، في أثر الأعاجم ثاروا بهم في ليلة الهرير[2]، ويأتي عثمان رضي الله عنه فيتجاوز سياسة التقييد التي فرضها الخليفتان قبله، تجاه المرتدين ويرتئي أن عامل الزمن ـ الذي مضى على عهد الردة ـ كافٍ لأن يتخلص من كان قد ارتد من رواسبها، ويجتهد عثمان فيستعمل أهل الردة إصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك، بل زادهم فساداً وجعل قائلهم يتمثل قول القائل:

وكُنْتُ وعَمْراً كالمُسَمِّنِ كَلْبَهُ فَتَخْدِشُهُ أَنْيابُهُ وَأَظافِرُهُ[3]

وكانت من نتائج استعمال عثمان لأهل الردة في الكوفة أن تبدل أهلها، وأصيب قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة في غزوه للترك، وهو الذي كان يقاتلهم في عهد عمر فيفرقون منه ويقولون: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه ملائكة تمنعه من الموت[4]، وتظهر الآثار بشكل واضح في الفتنة التي انتهت بقتل عثمان، وذلك حينما نجد في أسماء المتهمين في دم عثمان رجالاً ينتسبون إلى قبائل كانت في عداد المرتدين أمثال: سودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وحكيم بن جبلة العبدي[5].

هـ ـ **اليهود والنصارى**، وكان بعضهم ـ وهو كثير ـ قد خرج أو أُخرج من جزيرة العرب فاستقروا في الأمصار الكبيرة، ومنها الكوفة والبصرة، وكان اليهود خاصة ـ حسب طبعهم ـ ظلوا في تلك الأمصار المطلة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة، السيطرة المالية بوسائلهم المختلفة، والتآمر على قطع اليد التي تمد لهم المساعدة[6]، وسيأتي الحديث عن دور اليهود بإذن الله تعالى.

---

(1) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص(156).
(2) تاريخ الطبري (4/ 382).
(3) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص(157).
(4) تاريخ الطبري (5/ 146).
(5) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة، ص(157).
(6) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(381).

2 ـ تكوينات نسيج المجتمع الثقافي:

فإلى جوار هذا الخليط البشري كان هناك خليط آخر لا يقل خطره ـ إن لم يفق الخليط البشري ـ ألا وهو الخليط الثقافي، حيث تدفقت الثقافات والأفكار والنظم والعقائد مع تلك الأعداد البشرية التي انضمت إلى محتويات المجتمع الإسلامي، فصارت تشكل حِملاً ضخماً على عاتقه، ومما زاد الطين بلة أنه بالرغم من اندماج المسلمين في نسيج البلدان المفتوحة، حيث عاشوا في أوساطهم، وتزوجوا منهم، وتعلموا لغاتهم، ولبسوا ملابسهم، ومارسوا عاداتهم، إلا أنه بالرغم من ذلك فقد كان تأثيرهم في أهل البلد المفتوح محدوداً في هذه الفترة المبكرة[1]، فلم ينل أهالي هذه البلاد المفتوحة حظاً وافراً من التربية، ولم تتشبع بروح الإسلام كما هو حال الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكذلك القبائل العربية التي اختلطت بأهالي البلاد المفتوحة، وإذا كان الإسلام قد تمكن من صهر هذه القبائل المختلفة في بوتقة لفترة معينة، إلا أنه مما يجب أن يوضع في الحسبان أن عملية التعليم والتربية التي كانت تقودها القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار، لم تكن قادرة على استيعاب هذه الأفواج الكبيرة واحتوائها، فالموالي لم يتخلصوا من كل الأفكار والعادات التي كانوا عليها في جاهليتهم، ويرجع ذلك إلى عدم التوازن بين حركة التوسع الأفقي في فتح البلدان، وبين التوسع الرأسي في تعليم الناس وتفقيههم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على أن حركة الجهاد لابد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا الناس في دينهم، حتى لا يختل ميزان التربية، وتحدث الخلخلة في الصف الإسلامي، وتتوسع الفجوة بين الفاتحين وسكان الأراضي المفتوحة، مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية[2]، ولم يكن تفادي هذا الجانب السلبي رغم وجود انبذل والحماس في ميدان التعليم والتربية الإسلامية، حيث كان التوسع في الأرض سريعاً وواسعاً، فقد فتحت العراق وما وراءها وبلاد الشام في سنوات قليلة معدودة، فلم يكن في مقدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(381).

(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 358).

تلك المناطق وتعليمها[1].

ومن أسباب ذلك أن الصحابة الذين كان من المفروض أن يقوموا بهذه الأمانة قد قتل معظمهم في ميادين الجهاد، ولم يبق إلا أفراد قليلون متفرقون تجمع حولهم المسلمون الذين يحبون أن يتعلموا، فظهرت طبقة التابعين، ولأن معظمهم مخلصون فقد كانوا في مقدمة ميادين الجهاد فقتل أيضاً منهم مَن قتل[2]، كما لم يكن الزمن كافياً لترسيخ التعاليم الإسلامية في نفوس كثير منهم، مما ساعد ـ مع غيره من العوامل ـ على وجود خلخلة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامي، مما كان له الأثر في عدم استقرار الدولة، وظهر ذلك جلياً في السنوات الأخيرة من عهد عثمان رضي الله عنه[3].

3 ـ ظهور جيل جديد:

فقد حدث في المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك أن جيلاً جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانة في المجتمع، وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش في عصر غير العصر الذي كانوا يعيشون فيه، ويتصف بما لا يتصفون به، فهو جيل[4] يعتبر في مجموعه أقلّ من الجيل الأول الذي حمل على كتفيه عبء بناء الدولة وإقامتها، فقد تميّز الجيل الأول من المسلمين بقوة الإيمان والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسنة، وكانت هذه الميزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذي وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفردية، وبُعثت فيه العصبية للأجناس والأقوام وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهلية التي كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرعيل الأول من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[5]، فالصحابة كانوا أقل فتناً من سائر

(1) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 358).
(2) اليمن في صدر الإسلام للشجاع، ص(334).
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 359).
(4) الدولة الأموية، يوسف العش، ص(132).
(5) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (1/ 356).

من بعدهم، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[1].

كان الجيل الجديد لا يرضى بالواقع الذي كان يتسم به جيل الذين سبقوه، فقد اعتاد على غير ما اعتادوا عليه، فتكونت عقلية جديدة ومفهوم جديد للحياة، وهو مفهوم قد ابتعد عن العقلية التي كانت سائدة في عصر الراشدين الأولين، فأصبح لا يفهم تلك العقلية، ولا يستطيع تشربها، ولا يسعه أن يذعن لحكمها[2]، ولذلك انضم المنحرفون من الجيل الجديد لدعاة الفتنة.

4 ـ استعداد المجتمع لقبول الشائعات:

وهكذا ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع أنه صار مهيأً للهزات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقي الإذاعات والأقاويل والشائعات[3]، وهذا ما يعبر عنه بوضوح ابن تيمية قائلاً: ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر اللَّذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما كما قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر..**» أقرب عهداً بالرسالة وأعظم إيماناً وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة لم تقع فتنة إذ كانوا في حكم القسط (أي النفوس المطمئنة).

ولما كان في آخر خلافة عثمان وخلافة عليّ كثر القسم الثالث (أهل النفس اللوامة التي تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً) فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاة، وبعض الرعايا، ثم كثر هذا القسم (الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً) بعد فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية في الطرفين، وكل منهم متأول، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى[4]، ويوضح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين

(1) ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، ص(99).

(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص(133).

(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(382).

(4) مجموع فتاوى ابن تيمية (28/ 148، 149).

علي بن أبي طالب وأحد أتباعه، قال الرجل: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ قال علي: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك[1]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء: أما بعد، فإن الرعية قد طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعْداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مُسْرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر فَتُغيَّر[2].

ثالثاً: مجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنهما:

كان مجيء عثمان رضي الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختلاف الطبع بينهما مؤدياً إلى تغير أسلوبهما في معاملة الرعية، فبينما كان عمر قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعاً وأرقّ في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر حتى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومَن يطيق ما كان عمر يطيق[3]، لكن الناس وإن رغبوا في الشوط الأول من خلافته، لأنه لان معهم وكان عمر شديداً عليهم حتى أصبحت محبته مضرب المثل.

فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه ولين عريكته ورقّة طبعه ودماثة خُلقه، مما كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده وعهد سلفه عمر بن الخطاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم عليَ؟ ما جرّأكم عليّ إلا حلمي[4].

وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجة في ردّه على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصحابة والناس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه ووداعته قائلاً: بل نعفو ونقبل، ولنبصرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حدّاً أو يبدي كفراً[5].

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص(189).

(2) التمهيد والبيان، ص(64).

(3) تاريخ الطبري (5/ 418).

(4) تاريخ الطبري (5/ 250).

(5) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 364).

رابعاً: خروج كبار الصحابة من المدينة:

كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه فبلغه، فقام فقال: ألا إني قد سننت الإسلام سَنَّ البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثَنِيّاً، ثم رباعيّاً، ثم سدسياً، ثم بازلاً[1]. ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإن الإسلام قد بَزَل، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلاقيم[2] قريش وحَجَزها أن يتهافتوا في النار[3].

لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة، وتوسعهم في القطاع والضياع، فكان يأتيه الرجل من المهاجرين وهو ممن حبس في المدينة فيستأذنه في الخروج فيجيبه عمر: لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك[4].

وأما عثمان فقد سمح لهم بالخروج ولان معهم، يقول الشعبي: فلما ولي عثمان خلّى عنهم، فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس، فكان أحبّ إليهم من عمر[5]، فكان من نتائج هذا التوسع أن اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار، وانقطع إليهم الناس[6]. وفي رواية: فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم عمر فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس، انقطع إليهم مَن لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام، فكان مغموماً (مغموراً) في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم، وتقدموا في ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا في التقريب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن دخل في الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك[7].

---

(1) البازل: الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة، (413).

(2) الحلاقيم: جمع حلقوم.

(3) تاريخ الطبري (5/ 413).

(4) المصدر نفسه (5/ 414).

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه (5/ 413).

(7) المصدر نفسه (5/ 414).

خامساً: العصبية الجاهلية:

يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه: المهاجرين والأنصار وقريش وأهل الحجاز، ومَن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة، والأزد، وكندة وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة، وتردّد الوحي وتنزُّل الملائكة، فلما انحصر ذلك العباب، وتُنوسي الحال بعض الشيء، وذل العدو، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرياسة عليهم من المهاجرين والأنصار وقريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتجني بسؤال الاستبداد منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم، وتناولوا بالظلم في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار مَن يأتيه بالخبر... فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم[1].

سادساً: توقف الفتوحات:

حين توقفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جهات فارس وشمالي بلاد الشام أم في جهة أفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب، أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يعدّونها حقاً من حقوقهم[2]، وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان رضي الله عنه بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من

(1) تاريخ ابن خلدون (2/ 477).

(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 344).

الناس، وقد كان لها أثر ووقع على الأعراب، خاصة أن معظمهم بقي بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم في الطعام والنوم، والشطر الآخر بالخوض في سياسة الدولة، والحديث عن تصرفات عثمان التي كانت تهوّلها المبثية، وقد أدرك أحد عمال عثمان هذا الأمر وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه ونصحاؤه ـ أن يجتهد في آرائهم ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ويجمهرهم في المغازي حتى لا يتعدّى همّ أحدهم قمل فروة رأسه ودبرة دابته[1].

وفي ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعوّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدين شيئاً كثيراً يمكن أن يتوقع كل سوء، ويكفي أن يحرَّك هؤلاء الأعراب وأن يُوجّهوا توجيهاً، فإذا هم يثورون ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإن الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا في بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها[2].

سابعاً: المفهوم الخاطئ للورع:

الورع في الشريعة طيب وهو أن يترك ما لا بأس به مخافة مما فيه بأس، وهو في الأصل ترفع عن المباحات في الله ولله، والورع شيء شخصي يصح للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذي يجعل المباح حراماً أو مفروضاً، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة[3]، فقد استغل أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات أو المصالح، خروجاً على الإسلام وتغييراً لسنّة مَن سبقه، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة فاستباحوا ـ أو أعانوا مَن استباح ـ دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم، وهذا الورع الجاهل نلاحظه اليوم في تصرفات بعض المسلمين الذين يصرون على تكييف أحكام الإسلام وفق ما يشتهون أو يكرهون، أو وفق عاداتهم وتقاليدهم[4].

(1) تاريخ الطبري (2/ 340).

(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص(353).

(3) الأساس في السنّة (4/ 1676).

(4) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص(517).

ثامناً: طموح الطامحين:

وجد في الجيل الثاني من أبناء الصحابة ﷺ مَن يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أن الطريق أمامهم مغلق، وفي العادة أنه متى وجد الطامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفَّساً، فإنهم يدخلون في كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية[1].

تاسعاً: تآمر الحاقدين:

لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدهاء ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا مَن يستمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان[2]، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ونصارى وفرس، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم وحقدهم على الإسلام والدولة الإسلامية...

ولكننا هنا نضيف مَن وقع عليه حدٌ أو تعزير لأمر ارتكبه في وسط الدولة، عاقبه الخليفة أو ولاته في بعض الأمصار، وبالذات البصرة والكوفة ومصر والمدينة، فاستغل أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدين على حقيقته، فتكونت لهؤلاء جميعاً طائفة وصفت من جميع ما قابلهم بأنهم أصحاب شر، فقد وُصِفُوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونُزَّاع القبائل، وأهل المياه وعبيد المدينة[3]، وبأنهم ذؤبان العرب[4]، وأنهم حثالة الناس ومتفقون على الشر[5]، وسفهاء عديمو الفقه[6]، وأراذل من أوباش القبائل[7]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف

(1) الأساس في السنّة (4/ 1676).
(2) الأساس في السنّة (4/ 1676).
(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(392).
(4) المصدر نفسه.
(5) الطبقات (3/ 71) هذا وصف ابن سعد.
(6) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(392).
(7) شذرات الذهب (1/ 40) هذا وصف ابن العماد.

الأراذل[1]، وأنهم آلة الشيطان[2]، وقد تردد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصنعاني اليهودي ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود ثم أسلم، ولم يُثقّب أحد عن نواياه فتنقل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين[3]، وسيأتي الحديث عنه في مبحث مستقل بإذن الله.

عاشراً: التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضي الله عنه:

كان المجتمع مهيأً لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيأة، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن في الأمراء بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى استمالوا الناس إلى صفوفهم، ووصل الطعن إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه نفسه باعتباره قائد الدولة، وإذا ما حصرنا الدعاوَى التى رُوِّجت ضد الخليفة وطعنوه بها فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

1 ـ مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات والمواقع).

2 ـ سياسته المالية: الأعطيات، الحِمَى.

3 ـ سياسته الإدارية النافذة: تولية أقربائه، طريقته في التولية.

4 ـ اجتهادات خاصة به أو بمصلحة الأمة (إتمام الصلاة بمِنى، جمع القرآن، الزيادة في المسجد).

5 ـ معاملته لبعض الصحابة: عمار، أبي ذر، ابن مسعود[4].

وقد بيّنت موقف عثمان في كل ما وجه إليه في موضعه ولم يبق إلا عمّار رضي الله عنه وسيأتي الحديث عنه بإذن الله. وقد حدث زيادات في إبراز المطاعن على عثمان رضي الله عنه سواء في عهده وما واجهوه بها ورده عليها في حينه، أو ما تُقوِّل عليه فيما بعد عند الرواة

(1) شرح صحيح مسلم (15/ 148، 149).

(2) تاريخ الطبري (5/ 327).

(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(393).

(4) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(394).

والكتاب فإنها لم تصح ولم تصل إلى حد أن تكون سبباً في قتله[1].

إن المآخذ السابق ذكرها والمدونة في تاريخ الطبري وغيره من كتب التاريخ والمروية عن طريق المجاهيل والإخباريين الضعفاء ـ خاصة الإماميّة ـ، كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين ﷺ من ذلك الحظ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيّرة من تحريف المنحرفين وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه أو التشهير به، وقد أدرك عثمان ﷺ بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أما بعد، فإن الرعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرّ أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[2]، وقال ابن العربي عن تلك المآخذ جملة: قالوا متعدّين متعلقين برواية كذّابين، جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير... هذا كله باطل سنداً ومتناً[3].

وقد بيّن ابن تيمية بأن عثمان ﷺ ليس معصوماً، فقال: والقاعدة الكلية في هذا ألّا نعتقد أن أحداً معصوم بعد النبي ﷺ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ، والذنوب التي تقع منهم قد يتوبون منها، وقد تكفّر عنهم بحسناتهم الكثيرة، وقد يبتلون أيضاً بمصائب يكفِّر الله بها، وقد يكفَّر عنهم بغير ذلك، فكل ما ينقل عن عثمان غايته أن يكون ذنباً أو خطأ، وعثمان ﷺ قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوه كثيرة منها سابقته وإيمانه وجهاده وغير ذلك من طاعته، وقد ثبت أن النبي ﷺ شهد له، بل بشَّره بالجنة على بلوى تصيبه[4]، ومنها: أنه تاب من عامة ما أنكروه عليه، وأنه ابتلي ببلاء عظيم فكفّر الله به خطاياه، وصبر حتى قتل شهيداً مظلوماً وهذا من أعظم ما يكفِّر الله به الخطايا[5].

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(400).
(2) التمهيد والبيان، ص(64).
(3) العواصم من القواصم، ص(61 ـ 63).
(4) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (4/ 1867 ـ 1869).
(5) ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، ص(63).

حادي عشر: استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس:

وأهم هذه الأساليب، إشاعة الأراجيف حيث ترددت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً، والتحريض، والمناظرة والمجادلة للخليفة أمام الناس، والطعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب واختلاقها على لسان الصحابة رضي الله عنهم، عائشة وعلي وطلحة والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة، وأنه الوصي بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق في كل من البصرة والكوفة ومصر، أربع فرق من كل مصر مما يدل على التدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاءوا إلا بدعوة الصحابة، وصعّدوا الأحداث حتى وصل الأمر إلى القتل[1].

وإلى جوار هذه الوسائل... استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التكبير، ومنها: أن جهادهم هذا ضد المظالم، ومنها: أنهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثم تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا في جرأتهم وطالبوا بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصة حينما وصلهم الخبر بأن أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والتشوق إلى قتله بأي وسيلة[2].

ثاني عشر: أثر السبئية في أحداث الفتنة:

1 ـ السبئية حقيقة أم خيال؟:

أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء ـ عبد الله بن سبأ ـ، وخالف في ذلك قلة من المعاصرين أكثرهم من الشيعة، وحجة من أنكره أنه من إبداع مخيلة عمر بن سيف التميمي وذلك لانتقاد بعض علماء الرجال له في مجال رواية الحديث، إلا أن العلماء يعدونه حجة في الأخبار، علماً بأنه وردت روايات كثيرة عند ابن عساكر تذكر أن عبد الله بن سبأ وليس (سيف بن عمر) من الرّواة، وقد حكم الشيخ الألباني على بعضها بأنها صحيحة من حيث السند، هذا غير الروايات الكثيرة عن ابن سبأ في كتب الشيعة سواء في كتب الفرق أو الرجال أو الحديث عندهم وليس فيها عمر هذا لا من قريب ولا

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(401).
(2) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(402).

من بعيد، وقد فصَّل الدكتور سليمان العودة في كتابه عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام.

وقد شكّك بعض الباحثين في عبد الله بن سبأ[1]، وقالوا بأنه شخصية وهمية، وأنكروا وجوده، بدون حجة أو برهان، وأصناف الذين أنكروا شخصية ابن سبأ وهم طائفة من المستشرقين، وفئة من الباحثين العرب، وبعض المعاصرين، ومن العجيب أن هؤلاء المستشرقين وذيولهم من الرافضة والمستغربين في عصرنا أنكروا شخصية عبد الله بن سبأ، وأنه شخصية وهمية لم يكن لها وجود، فأين بلغ هؤلاء من قلة الحياء والجهل، وقد ملأت ترجمته كتب التاريخ والفِرق، وتناقلت أفعاله الرواة وطبقت أخباره الآفاق، لقد اتفق المؤرخون والمحدثون وأصحاب كتب الفِرق والملل والنِحل والطبقات والأدب والأنساب الذين تعرّضوا للسبئية على وجود شخصية عبد الله بن سبأ الذي ظهر في كتب أهل السنة، كما ظهر في كتب الشيعة شخصية تاريخية حقيقية، ولهذا فإن أخبار الفتنة ودور ابن سبأ فيها لم تكن قصراً على تاريخ الإمام الطبري، واستناداً إلى روايات سيف بن عمر التميمي فيه، وإنما هي أخبار منتشرة في روايات المتقدمين، وفي ثنايا الكتب التي رصدت أحداث التاريخ الإسلامي، وآراء الفِرق والنِحل في تلك الفترة، إلاّ أن ميزة تاريخ الإمام الطبري على غيره أنه أغزرها مادة وأكثرها تفصيلاً لا أكثر، ولهذا فإن التشكيك في هذه الأحداث بلا سند وبلا دليل، إنما يعني الهدم لكل تلك الأخبار، والتسفيه بأولئك المخبرين والعلماء، وتزييف الحقائق التاريخية، فمتى كانت المنهجية ضرباً من ضروب الاستنتاج العقلي المحض في مقابل النصوص والروايات المتضافرة؟ وهل تكون المنهجية في الضرب صفحاً والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدمة والمتأخرة التي أثبتت لابن سبأ شخصية واقعية؟[2]، وقد جاء ذكر ابن سبأ في كتب أهل السنة كثيراً منها:

---

(1) عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، يهودي من صنعاء، أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفان ظهر له نشاط ملحوظ في الشام والعراق ومصر خاصة، يرسم ويدلي بآراء هدامة ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة خليفتهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف. تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 284).

(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 70). كتاب دعاوى الإنقاذ للتاريخ الإسلامي، رد على حسن فرحات المالكي، للدكتور سليمان بن حمد العودة، وقد ذكر في رده الطرق التي عرضت على الألباني رحمه الله وحكم عليها.

جاء ذكر السبئية على لسان أعشى همدان[1]، المتوفى عام 83هـ وقد هجا المختار ابن أبي عبيد الثقفي وأنصاره من أهل الكوفة بعدما فرّ مع أشراف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله:

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ سَبَئِيَّةٌ وأَنِّي بِكُمْ يا شُرْطَةَ الكُفْرِ عَارِفُ[2]

وهناك رواية عن الشعبي المتوفى عام (103هـ ـ 721م) تفيد أن أول مَن كذب عبد الله بن سبأ[3]. وتحدث ابن حبيب[4] المتوفى عام (245هـ ـ 860م) عن ابن سبأ حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيات[5]، كما روى أبو عاصم خُشيش بن أصرم المتوفى سنة 253هـ خبر إحراق عليّ رضي الله عنه لجماعة من أصحاب ابن سبأ في كتابه الاستقامة[6]، ويعتبر الجاحظ[7] المتوفى سنة 255هـ من أوائل مَن أشار إلى عبد الله بن سبأ[8]، ولكن روايته ليست أقدم عن ابن سبأ كما يرى الدكتور جواد علي[9].

وخبر إحراق علي بن أبي طالب رضي الله عنه لطائفة من الزنادقة تكشف عنه الروايات الصحيحة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد[10]، ولفظ الزندقة ليس غريباً عن عبد الله بن سبأ وطائفته، يقول ابن تيمية: إن مبدأ الضلال إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ[11].

ويقول الذهبي: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضالٌّ مضلٌّ[12]. ويقول ابن

(1) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني: المعروف بأعشى همدان: شاعر فارسي أحد الفقهاء القرّاء، لكنه قال الشعر وعرف به، قال الذهبي: شاعر مفوّه شهير، كان متعبداً فاضلاً قتل عام 83هـ.

(2) ديوان أعشى همدان، ص(148).

(3) تاريخ دمشق، ابن عساكر (9/ 331).

(4) محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي عالم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، توفي عام 245هـ، تاريخ بغداد (2/ 277).

(5) المحّبر، ابن حبيب، ص(308)، عبد الله بن سبأ للعودة، ص(53).

(6) هو خشيش بن أصرم بن الأسود النسائي، ترجم له الذهبي، تذكرة الحفاظ (2/ 551)؛ شذرات الذهب (2/ 129).

(7) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، من أئمة الأدب والعلم توفي عام 255هـ. الأعيان (3/ 470).

(8) البيان والتبيين (3/ 81).

(9) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 290)، عبد الله بن سبأ للعودة، ص(53).

(10) المصدر نفسه.

(11) مجموع الفتاوى (28/ 483).

(12) ميزان الاعتدال للذهبي (2/ 426).

حجر: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة... وله أتباع يقال لهم السبئية معتقدون الإلهية في علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته[1]، ويوجد لابن سبأ ذكر في كتب الجرح والتعديل، يقول ابن حبان المتوفى 354هـ، وكان الكلبي ـ محمد بن السائب الإخباري ـ سبئياً، من أصحاب عبد الله بن سبأ، من أولئك الذين يقولون: إن عليًّا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة... وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها[2]...، كما أن كتب الأنساب هي الأخرى تؤكد نسبة (السبئية) إلى عبد الله بن سبأ، ومنها على سبيل المثال كتاب (الأنساب للسمعاني)[3] المتوفى عام 562هـ[4]، وعرّف ابن عساكر المتوفى عام 571هـ ابن سبأ بقوله: عبد الله بن سبأ الذي تنسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلام[5].

ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله بن سبأ، إذ أورد ابن عساكر في تاريخه روايات لم يكن سيف فيها، وهي تثبت ابن سبأ وتؤكد أخباره[6]، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة 728هـ أن أصل الرفض من المنافقين الزنادقة، فإنه ابتداع ابن سبأ الزنديق، وأظهر الغلو في علي لإمامته عليها، والنصّ عليها، وادعى العصمة له[7]. ويشير الشاطبي[8]، المتوفى عام 790هـ إلى أن بدعة السبئية من البدع الاعتقادية المتعلقة بوجود إلٰه مع الله ـ تعالى الله ـ وهي بدعة تختلف عن غيرها من المقالات[9]، وفي خطط المقريزي المتوفى عام 845هـ، أن عبد الله بن سبأ قام في زمن علي محدِثاً القول بالوصية والرجعة والتناسخ[10].

وأما المصادر الشيعية التي ذكرت ابن سبأ: فقد روى الكشي عن محمد بن قولوية،

(1) لسان الميزان، أحمد بن حجر، حيدرآباد الدكن (3/ 360).
(2) المجروحين من المحدثين، أبو حاتم التميمي (2/ 253).
(3) عبد الكريم بن محمد السمعاني توفي عام 562هـ؛ تذكرة الحفاظ (4/ 1316).
(4) الأنساب، أبو سعيد التميمي (7/ 24).
(5) تاريخ دمشق لابن عساكر (9/ 328 ـ 329).
(6) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 298)، عبد الله بن سبأ للعوده، ص(54).
(7) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4/ 435).
(8) إبراهيم بن موسى، محمد الغرناطي توفي عام 790هـ.
(9) الاعتصام، أبو إسحاق اللخمي (2/ 197).
(10) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي (2/ 256 ـ 357).

قال حدثني سعد بن عبد الله، قال: حدثني يعقوب بن يزيد، ومحمد بن عيسى، عن علي بن مهزيار، عن فضالة بن أيوب الأزدي، عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادّعى الرّبوبية في أمير المؤمنين، وكان والله أمير المؤمنين عبداً طائعاً، الويل لمن كذب علينا! وإنّ قوماً يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا نبرأ إلى الله منهم[1]، والرواية من حيث السند صحيحة[2].

وفي كتاب (الخصال) أورد القمي الخبر نفسه، ولكن موصولاً بسند آخر، وأما صاحب روضات الجنات فقد ذكر ابن سبأ عنده على لسان الصادق المصدوق الذي لعن ابن سبأ لاتهامه بالكذب والتزوير وإذاعة الأسرار والتأويل[3]. وقد ذكر الدكتور سليمان العودة في كتابه مجموعة من النصوص التي تزخر بها كتب الشيعة ومروياتهم عن عبد الله بن سبأ، فهي أشبه ما تكون وثائق مسجلة تدين مَن حاول من متأخري الشيعة إنكار عبد الله بن سبأ، أو التشكيك في أخباره، بحجة قلة، أو ضعف المصادر التي حكت أخباره[4].

إن شخصية ابن سبأ حقيقة تاريخية لا لبس فيها في المصادر السنية والشيعية المتقدمة والمتأخرة على السواء، وهي كذلك أيضاً عند غالبية المستشرقين أمثال: يوليوس فلهاوزن[5]، وفان فولتن[6]، وليفي ديلافيدا[7]، وجولدتسهير[8]، وريتولد نكلسن[9]، ودوايت رونلدسن[10]... على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال: كيتاني وبرنارد لويس[11] وفريدلندر المتأرجح[12]

(1) رجال الكشي (1/ 324).
(2) عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهولة لمحمد علي العلم، ص(30).
(3) عبد الله بن سبأ، سليمان العودة، ص(62).
(4) عبد الله بن سبأ، سليمان العودة ص(62).
(5) الخوارج والشيعة، بوليوس فلهاوزن، ص(170).
(6) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص(80)، فان فولتن.
(7) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 312).
(8) العقيدة والشريعة الإسلامية، جولدتسهير، ص(229).
(9) تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام، ص(235).
(10) عقائد الشعية، ص(58).
(11) أصول الإسماعيلية، ص(86).
(12) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 312).

علماً بأننا لا نعتد بهم في أحداث تاريخنا.

ومن استقرأ المصادر، سواء القديمة والمتأخرة، عند السنة والشيعة، يتأكد له بأن وجود ابن سبأ كان وجوداً حقيقياً تؤكده الروايات التاريخية، وتفيض فيه كتب العقائد، وذكرته كتب الحديث، والرجال، والأنساب، والأدب، واللغة، وسار على هذا النهج كثير من المحققين والباحثين المُحدَثين، ويبدو أن أول مَن شكك في وجود ابن سبأ بعض المستشرقين، ثم دعّم هذا الطرح الغالبية من الشيعة المحدثين، بل وأنكر بعضهم وجوده البتة، وبرز من الباحثين العرب المعاصرين مَن أعجب بآراء المستشرقين، ومَن تأثر بكتابات الشيعة المُحدثين، ولكن هؤلاء جميعاً ليس لهم ما يدعمون به شكهم وإنكارهم إلا الشك ذاته، والاستناد إلى مجرد الظنون والفرضيات[1]، ومَن أراد التوسع في معرفة المراجع والمصادر السنية والاستشراقية والشيعية التي ذكرت ابن سبأ فليراجع: «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» للدكتور محمد أمحزون، و«عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»، للدكتور سليمان بن حمد العودة.

2 ـ دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة:

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان ﷺ بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي نتيجة عوامل التغيير التي ذكرناها، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة ومتظاهرين بالإسلام واستعمال التقية، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة[2]، فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنه أبرزها وأخطرها، إذ أنَّ هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادّعاها واخترعها من قبل نفسه وافتعلها من يهوديته الحاقدة، وجعل يروجها لغاية ينشدها وغرض يستهدفه، وهو الدّس في المجتمع الإسلامي بغية النيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرسُ بذور الشقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة

(1) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 312).

(2) مثال سعيد الأفغاني في كتابه (عائشة والسياسة).

العوامل التي أدّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرق الأمة شيعاً وأحزاباً[1]، وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدمات صادقة وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السذّج والغلاة وأصحاب الأهواء من الناس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله عى زعمه الفاسد حيث قال: لَعَجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمداً يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: 85] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[2]، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصية لعلي رضي الله عنه بقوله: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان عليّ وصي محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء[3].

وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان رضي الله عنه فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم حيث قال لهم: مَن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة؟ ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر[4]، وبثّ دعاته.

وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسّرون غير ما يبدون، فيقول أهل مصر: إنّا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم

(1) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 327).
(2) تاريخ الطبري (5/ 347).
(3) المصدر نفسه.
(4) تاريخ الطبري (5/ 348).

جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: إنّا لفي عافية مما فيه الناس[1].

ويظهر من هذا النص الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحق وهو علي، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان، ثم حاول بعد ذلك أن يحرك النّاس ـ خاصة في الكوفة ـ على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علماً بأنه ركّز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، فالقرّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيّزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التهم والمطاعن التي حرّك بها نفوس الغوغاء ضد عثمان ﷺ، ثم إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيّئة مفجعة عن مصرهم إلى بقية الأمصار.

وهكذا يتخيل الناس في جميع الأمصار أن الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي[2]، هذا وقد شعر عثمان ﷺ بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار، وأن الأمة تمخض بشرّ فقال: والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها[3].

على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو في مصر، وهناك أخذ ينظم حملته ضد عثمان ﷺ، ويحثّ الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ووثب على وصي رسول الله ﷺ يقصد عليًّا[4]، وقد غشَّهم بكتب ادّعى أنها وردت من كبار الصحابة، حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، حيث تبرّأوا مما نسب إليهم من رسائل

(1) تاريخ الطبري (5/ 348).

(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص(168)؛ تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330).

(3) تاريخ الطبري (5/ 350).

(4) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330)؛ تاريخ الطبري (5/ 348).

تؤلب الناس على عثمان[1]، ووجدوا عثمان مقدِّراً للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم، وفسرّ لهم صدق أعماله، حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك الأشتر النخعي: لعلّه مُكر به وبكم[2]، ويعتبر الذهبي أن عبد الله بن سبأ المهيّج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشقاق والنقمة على الولاة ثم على الإمام ـ عثمان ـ فيها[3]، ولم يكن ابن سبأ وحده، وإنما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وأخطبوط من أساليب الخداع والاحتيال والمكر، وتجنيد الأعراب والقراء وغيرهم، ويروي ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ وذهابه إلى مصر وإذاعته بين الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[4].

إن المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخلفها يتفقون على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئية؛ ليلفت المسلمين عن دينهم، وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوّنت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، والذي يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيماً، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها ونشر أفكارها لامتلاكها ناصية الدعاية، والتأثير بين الغوغاء والرعاع من الناس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة أم الكوفة أم مصر، مستغلة العصبية القبلية، ومتمكنة من إثارة مكامن التذمر عند الأعراب والعبيد والموالي، عارفة بالمواضع الحساسة في حياتهم وبما يريدون[5].

❑❑❑

(1) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330)؛ تاريخ الطبري (5/ 365).
(2) المصدر نفسه (1/ 331).
(3) المصدر نفسه (1/ 338).
(4) البداية والنهاية (7/ 167، 168).
(5) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص(339).